طوينا »ذاكرة الصحافة المغربية» التي ستصدر في كتاب، لنحلق بعيدا في رحاب نفس القطاع، ولكن مع الاختلاف في كون السفر الأول كان في الزمان، رجوعا إلى ماضي المؤسسين، وهذا السفر الثاني هو سفر في المكان بحثا عن بروفايلات ومسارات الصحافيين المغاربة العاملين بالخارج. هم كثر يعدون بالمئات، متألقون، حيث يشتغلون في القارات الأربع وفي أكبر المؤسسات الإعلامية عبر العالم، منهم المدير والمسؤول ورئيس التحرير وكبير المراسلين، ومنهم المحرر والمراسل الحربي والمحلل، لهم حكايات وقصص ومغامرات تستحق أن تروى لتكون شاهدا على أن السؤال الذي نطرحه هنا يبقى مشروعاً: لماذا توجد أنفس الكفاءات الصحافية في الخارج والإعلام هنا في الوطن يئن؟ الجواب في ثنايا هذه الشهادات لكتاب التاريخ اليومي بأقلام سفراء المملكة الشريفة.

عمر المخفي طار إلى طهران وفي جيبه 1440 درهم وانتهى في الخليج

من معمعة الصحافة في المغرب إلى أجواء المهنة في الخليج 2/1

مسار عمر المخفي ينضح بالكثير من النجاحات التي تلف الكثير من الجراحات. وصل إلى قمة الهرم في الخليج ورأس تحرير قناة دبي، وقد وصل إلى الإمارات بعد رحلة متشعبة في المغرب من معهد الإعلام إلى "المغرب" و"ليكونوميست" ثم القناة الثانية قبل أن يحط الرحال بطهران فدبي فالدوحة، قصة مليئة بالعبر يرويها المخفي بالكثير من التأثر والفخر والمرارة أيضا.

» حاوره: محمد السعدوني

← دعنا بداية نبدأ بذلك السؤال الكلاسيكي، كيف كانت بداية عمر المخفي ابن منطقة زايو، وأتحدث هنا عن مرحلتي الطفولة و الشباب؟

■ البداية كانت في أواخر صيف 1972. كنت الطفل السادس لعائلة ستصبح فيما بعد من عشرة إخوة. العائلة الأكبر تتكون من عشرات الأفراد طبعا، وكنا جميعا نعيش في بيت جدي رحمه الله في بادية زايو. بدأ الشيب يظهر في شعري في السنة الرابعة فلقبت بعمر الشيباني. التحقت بالدراسة عام 1978، وكان المدرس هو والدي رحمه الله نفسه. كنت أمشي رفقة أولاد الدوار لمسافة أربعة كيلومترات حتى نصل إلى المدرسة، ولم أركب يوما مع والدي في سيارته السيمكا البيضاء. كنت متفوقا في دراستي، لكن والدي كان يؤخر ترتيبي عمدا في الامتحان ويضعني دائما في الرتبة الرابعة. ابتداء من القسم الثاني انتقلت للدراسة في زايو ومنذ ذلك الحين وأنا أحصل على مراتب أفضل. كنت ألعب كرة القدم خفية عن الأهل وكنت أعشق الرسم والخط العربي. قرأت قصص عطية الأبراشي والمكتبة الخضراء وقصص بروباغاندا البعث العراقي في وقت مبكر، وفي سن الحادية عشرة قرأت كل روايات تاريخ الإسلام لجرجي زيدان ثم انتقلت بسرعة إلى نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس. بعدها اكتشفت عبد الرحمن منيف وحنا مينا وجبرا ابراهيم جبرا. استعمت مبكرا لمارسيل خليفة وتعرفت من خلاله على محمود درويش، وللشيخ إمام وتعرفت من خلاله -للمفارقة- على الموسيقى الطربية.

لم تنقطع علاقتي بالبادية وظللت مرتبطا بمواسم الزرع والحصاد وتزهير اللوز وأوان قطاف التين الشوكي الذي كنت أبيعه على قارعة الطريق الرئيسية التي تربط زايو بالناظور. كان الصيف مصدر كل الأفراح والهواجس: فيه يعود المهاجرون محملين بالهدايا وفيه تقام الأعراس ذات الطابع المميز بأغاني الصف ورقصات الركادة والعلاوي، ولكن فيه أيضا يهرب «السارح» فاضطر لأن أرعى الأغنام محله.

← كيف اخترت مهنة الصحافة؟ هل كان الأمر بتخطيط مسبق أم أنها الصدفة؟

■ الصحافة حلم رافقني منذ الطفولة بشكل غير واع ربما. أذكر أنه منذ السنة الرابعة ابتدائي (أو المتوسط الأول كما كانت تسمى حينها) بدأت أعلن عن رغبتي في أن أصبح صحفيا لكل من يسألني عن حلمي. وأذكر كذلك التعليق المشكك لأحد أساتذتي وهو ينظر لجسمي النحيف «أنت غادي تغطي الحرب في لبنان؟». أعتقد أن الحلم ولد من تأثير المحيط العائلي، فجرائد «المحرر» ثم «الاتحاد الاشتراكي» و«أنوال» ومجلة «الوطن العربي» كانت متوفرة بشكل دائم في المنزل. غير أن التأثير الأكبر جاء من مجموعة مجلات كان يحتفظ بها الوالد رحمه الله ويعود أغلبها إلى نهاية الخمسينيات وعقد الستينيات. مجلات مثل «العربي» و«العالم» و«هنا لندن» غذت أحلامي بزيارة أماكن كثيرة في العالم، أذكر منها تحديدا مغارة جعيتا في لبنان وجزيرة سوقطرى في اليمن. وقد زرت الأولى ولم يكتب لي زيارة الثانية بعد رغم أنني عشت في اليمن لأزيد من سنة. بعد ذلك بدأ تأثير الإذاعة. كنت من عشاق الإذاعات الدولية الناطقة بالعربية. كنت أحفظ الترددات على الأمواج القصيرة ومواعيد البرامج، وكنت أستمتع بالتنقل بين صفير وأزيز الراديو العتيق حتى أرسو على المحطة المرجوة.

← كيف تبلور الحلم وصار حقيقة؟

■ عن طريق الدراسة. وهنا لا بد أن أشير إلى أنني بعد حصولي على شهادة الباكلوريا صدمت عندما علمت أن المعهد العالي للصحافة أغلق الباب في وجه حاملي الباكلوريا وبات يشترط الإجازة. فالتحقت بمدرسة علوم الإعلام الملاصقة لمعهد الصحافة. ومن على بعد بضعة أمتار، ولأربع سنوات، ظللت أنظر للمعهد بحسرة لأن ولوج أسلاكه كان مشروطا بخبرة لا تقل عن ثلاث سنين. كان ذلك على عهد وزير الداخلية والإعلام الراحل إدريس البصري. تصور أن المغرب لم يكون أي صحفي جديد خلال نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، وأن المعهد تحول لمجرد قنطرة لمن يريد الارتقاء من السلم العاشر إلى السلم الذي يليه! لكن حصل تغيير في عام 1993، وبات بإمكان المتفوقين الالتحاق بالمعهد بعد اجتياز مباراة الولوج. وهذا ما قمت به صيف 1994.

← طوال سنوات الحلم بالصحافة، ألم تجرب الكتابة؟

■ بلى. كانت لي محاولتان في السنة الخامسة ابتدائي والأولى إعدادي، وكانتا كلتاهما لمجلتين مدرسيتين وكلتاهما لم تنشرا. في العام 1986 بعثت بمادة لصحيفة «الاتحاد الاشتراكي» وكان نصيبها سلة المهملات. وللمفارقة، كان أول ما نشر لي على الإطلاق في نفس الجريدة هو شبكة للكلمات المتقاطعة رسم في داخلها «كل عام وأنتم بخير». أعتقد أن ذلك كان في الأول من يناير 1988. بعد ذلك، بدأت أخربش كتابات غير قابلة للتصنيف كنت أحتفظ بها لنفسي أو أمزقها.

← بعد التخرج، هل كان سهلا الحصول على عمل؟

■ أبدا. في منتصف التسعينيات، كان الحقل الإعلامي أشبه بصحراء قاحلة وفرص العمل للصحفيين شبه منعدمة. وهذا ما يفسر توجه عدد من خريجي الصحافة إلى مدرسة تكوين الأطر لتلقي تكوين القياد. شخصيا، قررت التفرغ لإنهاء أطروحة السلك الثالث. كما سجلت في باكلوريا جديدة بعدما تم رفض تسجيلي في كلية الحقوق بجامعة محمد الخامس (بدعوى أن شهادة الباكلوريا التي أحملها قديمة). أثناء ذلك رتب لي الزميل كريم بنداود موعدا في جريدة المغرب التابعة للتجمع الوطني للأحرار من أجل تدريب غير مدفوع الأجر. وذهبت لمقابلة مدير التحرير الأستاذ مصطفى إزناسني الذي عرض علي -للمفاجأة- منصبا دائما براتب شهري يقدر بأربعة آلاف ومئتي درهم. وهكذا بدأت مساري المهني. أنا مدين للأستاذ إزناسني بهذه الفرصة وبالكثير الذي تعلمته منه. وكذلك الأمر بالنسبة للصديق عبد الناصر بنو هاشم الذي احتضنني ووفر لي كل سبل الدعم التي قد يحتاجها صحفي في بداية الطريق.

← قبل الحديث عن مسارك المهني، هل نجحت في الباكلوريا الثانية؟

■ نعم، وسجلت في كلية الحقوق ونلت الإجازة في العلوم السياسية بعد خمس سنوات. أقول خمس سنوات لأنني كررت السنة الثالثة، وأعتقد أنني الطالب المغربي الوحيد الذي كرر السنة رغم حصوله على ميزة. ذلك أنني فوت موعد اجتياز أحد الامتحانات وحصلت على صفر، ولم يشفع لي مجموع النقاط التي حصلت عليها في المواد الأخرى. تصور أن تكرر العام بمجموع 61 بينما آخرون يجتازون الامتحانات الشفوية بمجموع 47! كان نظاما غبيا ومن الجيد أنه تغير.

← بالعودة إلى مسيرتك الصحفية، كيف تحكم على العمل ضمن مؤسسة حزبية كمؤسسة الميثاق-المغرب؟

■ يجب القول بداية إن هذه المؤسسة خرجت نخبة من ألمع الصحفيين في المغرب كالعميد عبد الله الستوكي ونجيب أرفايف ونرجس الرغاي والقائمة تطول. كما أنها خرجت وزيرين هما محمد بنعيسى ومحمد أوجار (يضحك). اللافت في هذه المؤسسة أنها -رغم انتمائها لحزب مخزني المنشأ والهوى- أعطت فرصا لصحفيين محسوبين على اليسار وكثير منهم كان معتقلا كبنوهاشم وأوجار وأحمد الجزولي

عمر المخفي رفقة د. جمال بنعمر المبعوث الدولي الخاص لليمن وأمين عام مؤتمر الحوار الوطني د. أحمد بن مبارك

وعبد الصمد بنشريف وغيرهم. هذا الأمر يعطينا ربما مؤشرا على طريقة تفكير المخزن التي تميزت ببعض المرونة في التعامل مع «الخصوم» آنذاك. ولو أردنا المقارنة مع المخزن الجديد، فمقاربة الأخير تقوم فقط على ثنائية الإقصاء أو الاحتواء عن طريق الشراء.

شخصيا، حظيت بكل الاحترام لاستقلاليتي ولم يطلب مني قط أن أكتب عن التجمع الوطني للأحرار أو نشاطاته. ولكن على العموم، الصحافة الحزبية في المغرب أدت مهامها في فترة ما والآن أصبحت تنتمي للمتحف. لا أعتقد أن لها مستقبلا، بل ليس لها حاضر. أما ماضي بعضها فهو «على الرأس والعين».

← بعد جريدة المغرب، عملت في «ليكونوميست». كيف كان الانتقال من الصحافة الحزبية إلى صحافة القطاع الخاص؟

■ قبل الالتحاق بـ«ليكونوميست»، حصلت على عرض عمل كمستشار إعلامي لوزير الأوقاف والشؤون الإسلامية عبد الكبير العلوي المدغري. الصديق العزيز أنس بوسلامتي اقترحني بديلا عنه بعد مغادرته ونلت رضى الوزير الذي كان يبحث عن شخص متمكن من اللغتين العربية والفرنسية. لكني هربت من العرض لأن زيارتي للوزارة مرتين كرست لدي الإحساس بعدم الانتماء للإدارة. فالتحقت بـ «ليكونوميست»، وكانت أهم نقلة مهنية لي خلال مسيرتي المهنية بالمغرب. يأخذ الكثير على الجريدة أنها أشبه بالمعمل، ولكنها توفر شروط عمل جيدة ولديها قواعد تحريرية صارمة، كما أن لها سياسة واضحة حيال ارتشاء الصحفيين.

← ما الذي تحفظه من هذه التجربة؟

■ كثير من الفخر الصحفي وبعض من المرارة. خلال فترة عملي بالجريدة قمت بأفضل أعمالي في مجال التحقيق الصحفي. كشفت قضية تبديد الأموال العامة في القرض الفلاحي، وكنت أول من عرض تفاصيل فضيحة القرض العقاري والسياحي وتلمست الخطوط الأولى لقضايا أخرى أذكر منها قضية المنحة الملكية لهشام الكروج. أعتقد أنني والزميلة نادية لمليلي قمنا بأهم التحقيقات الصحفية في بداية حكم محمد السادس. عندما أقرأ الآن ما يكتب عن تقرير المجلس الأعلى للحسابات الأخير، أبتسم بسخرية وأنا أتذكر أن نادية كشفت عدة حالات عن طريق الاستقصاء وليس بفضل تقرير منشور علنا. وكذلك الأمر بالنسبة لي. لم يستطع أي ممن كتبنا عنهم أن يقاضينا أو حتى يبعث ببيان تكذيب لأن عملنا كان مهنيا بدرجة عالية ويقوم على تحري المصادر بشكل صارم. كما أن أحدا لم يستطع شراءنا. وأذكر هنا المحاولة الفاشلة لرئيس مجلس المستشارين الأسبق الذي حاول رشوتي بمبلغ 150 ألف درهم للتغاضي عن قضية «إقامة لخضر» مع القرض العقاري والسياحي بسبب ورود اسم رئيس الحزب الذي ينتمي إليه فيها. لم أستطع أبدا أن أفهم كيف يقوم الرجل الثالث في بروتوكول الدولة بهذا الأمر بنفسه ودون مواربة! عموما، كانت مرحلة انفتاح نسبي والمخزن الجديد «كان طالق اللعب» قليلا ف«سرقنا» بعض الصحافة في غفلة من الجميع. لكن تلك التجربة وكشفت لي عمق الفساد الذي كان ينخر المملكة الشريفة (وما يزال للأسف)؟

← هذا إذن سبب المرارة التي قلت إن هذه التجربة خلفتها لديك؟

■ نسبيا. أنا غادرت المغرب منذ 10 سنوات وما زلت أسمع عن فضائح القرض العقاري السياحي. مؤخرا التقيت بأحد مصادري السابقة وقال لي إن حليمة عادت إلى عادتها القديمة في إشارة إلى قضية تفويت أراضي زراعية بشكل غير شفاف. المرارة تأتي كذلك من الإحساس بأنك مهما كتبت، فأنت لن تغير شيئا وخاصة إن كنت تكتب باللغة الفرنسية. وهذا كان دافعي للتحول إلى الصحافة الناطقة بالعربية. أذكر أن صحيفة «الأحداث المغربية» نشرت مقالا على ستة أعمدة أثار ضجة في الوسط السياسي (أعتقد أنه كان عن التقسيم الانتخابي الجديد)، فاتصلت بي نادية صلاح تؤنبني لأنني لم أنتبه إلى أهمية الموضوع، لكنها أصيبت بالذهول عندما أخبرتها أننا نشرنا تفاصيل ذات الموضوع قبل ستة أشهر. اكتشفت بعدها أن زميلا في الأحداث كان يعيد «تسخين» بعض مواضيعي أنا ونادية لمليلي، ولم نمانع لمعرفتنا بأن تأثير الصحافة العربية أكبر. بل في أحيان كثيرة، كنا نعطي معلومات لا تنشر في «ليكونوميست» إلى بعض الزملاء. المهم أن تنشر المعلومة.

← هل تسببت لك تحقيقاتك الصحفية في أي متاعب؟

■ ليس بالمعنى الحقيقي للكلمة. الشرطة القضائية أجرت تحقيقا مع إدارة «ليكونوميست» عن مصادر معلوماتنا. وانتهى الأمر بالقول إننا حصلنا عليها بالبريد من قبل مجهول. لكنني التقيت بشخصيات كبيرة غاضبة من تنكر المخزن لها وكانت مستعدة للبوح، ووصلتني ملفات بآلاف الصفحات، وأعتقد أن ذلك خلق حالة من التوتر لدى «أصحاب الحال» عن حجم المعلومات التي نعرفها. وما كنا نعرفه في قضيتي القرض العقاري والسياحي والقرض الفلاحي مثلا يوصل كله تقريبا إلى دوائر نافذة كما كان الشان في قضيتي إقامة الصباح وكابيلا مارينا وغيرهما. على العموم انتهت «الأيام السبعة للباكور» وبدأ التضييق علي شخصيا وبتواطؤ من إرادة الجريدة للأسف. حيث وضع 14 تحقيقا صحفيا أجريته في الدرج وبات يطلب مني تغطية ندوات عن «الواقع والآفاق». وتكرر الأمر عدة مرات، ففهمت الواقع وذهبت أبحث عن آفاق جديدة.

← وتلك الآفاق وفرتها لك القناة الثانية، ولكن قبل ذلك حدثنا عن لقائك بإدريس البصري أثناء عملك في «ليكونوميست»؟

■ كان لقاء غريبا وطريفا وجرى بعد إنهاء مهامه كوزير للداخلية بشهرين تقريبا. كتبت مقالا عن مشروع قانون المحاكم الجهوية للحسابات الذي أحالته حكومة اليوسفي إلى البرلمان بعدما كان البصري يعرقل ذلك لأشهر. لم يعجبه الأمر فاتصل بالمكتب واحتج على عدم دقة المقال. من إنصاتي إليه، فهمت أنه يبحث فقط عن عذر للحديث إلى الصحافة لأن كل اعتراضاته صبت على استعمالي لكلمة Limogeage. وكان يزعم بأنه لم يفصل من عمله وأنه رجل دولة يخدم المغرب والمؤسسة الملكية من داخل الحكومة أو من خارجها. اقترحت عليه أن ألتقيه وآخذ تعليقاته مباشرة. تردد وقال إنه سيعاود الاتصال بعد ربع ساعة. وبالفعل، حادثني ليقول إن سائقه ينتظرني أسفل المكتب وإنه سينقلني إلى نادي الغولف بدار السلام. كانت أعقاب سجائر مور البنية في منفضدة السيارة دليلا على البصري. وصلت إلى النادي فوجدت البصري يلعب الغولف رفقة عبد الرحمن بوفتاس وشخص آخر يدعى أنيس وآخرين لم أعرفهم. بدأنا حديثنا عند الحفرة رقم 2 وانتهينا عند الحفرة 17. تكلمنا عن العموميات والفلسفة من وراء إنشاء المحاكم الجهوية للحسابات، ثم تشعب الحديث في كل اتجاه، فتحدث عن الراحل الحسن الثاني وعن تجربة التناوب واليوسفي وعبد الواحد الراضي ومحمد بنعيسى وقضية الصحراء وغيرها الكثير. وكان في كل مرة نخرج عن الموضوع الذي قابلته من أجله يطلب مني إطفاء المسجلة، وكان أحد المرافقين يتأكد كل مرة أنني أطفأتها فعلا.

← ما الذي تذكره من كلام البصري، هل قال أي شيء يستحق الذكر؟

■ من طريقة حديثه تبين أنه كان ساعتها مايزال يعيش في وهم «الغضبة الملكية العابرة». كان يعتقد أن لا غنى عن خدماته وأن المسألة مسألة وقت لا غير قبل أن يعود من نافذة ما بعدما غادر من الباب. ولكن أذكر قوله وهو يضرب بكفه على صدره باعتزاز بأن «المغرب لم يعرف خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة سوى شخصين اثنين: المرحوم الحسن الثاني والعبد لله»، لينطلق بعدها في سخرية مريرة من اليوسفي والراضي: «فرحانين بالتناوب؟ أنا اللي عملت التناوب». سخر كذلك من محمد بنعيسى قائلا «كتبوا عليه جوج سطورا مشا دعاهم وطالبهم بـ 200 مليون» (في إشارة إلى قضية وزير الخارجية الأسبق مع «لوجورنال»). قلت له بأدب إن سجله مع حرية الصحافة ليس أفضل، فنظر إلي بحدة وقال إنه يتحداني إن أتيت له بمثال واحد انتهك فيه حرية الصحافة. ذكرت له أعداد الجرائد والمجلات التي تجمع من المطابع أو من الأكشاك وتدخله شخصيا لمنع صحيفة المواطن وثلاث من أخواتها كان عبد الله زعزع وعمر الزيدي وآخرون قد أصدروها بداية التسعينيات، لكنه أنكر أي صلة له بالموضوع وقال إن علاقاته طيبة مع كل الصحفيين الذين يبادلونه الاحترام. قلت له بالفرنسية: «أنت مشهور كذلك برشوة الصحفيين». كان على وشك أن يضرب كرة الغولف فتوقف (وهو بالمناسبة لاعب غولف سيء جدا). شزرني بنظراته ورد: «أنا أرشو الصحافيين؟ ماحشمتيش؟»، ثم نظر إلى بوفتاس وقال «شتي تاخير الزمان. لبراهش ولاو كيضصروا علينا». ثم توجه إلي بعدما احتوى الانفعال الذي ألم به : Je ne suis pas un corrupteur de la presse، je suis un seducteur de la presse

كان لقاءا خارجا عن المألوف. وأعترف أنني وجدت رجلا جذابا بطريقة حديثه المباشرة وبلهجته العروبية التي تطغى حتى على فرنسيته.

← لماذا لم تنشر أبدا هذا اللقاء؟

■ لأن البصري اتصل بعبد المنعم دلمي أو بنادية صلاح وقال لأحدهما إنه غير مسؤول عما سأنشره. أعتقد أنه نسي أي مقاطع سجلت وأيها لم تسجل، كما أنه كان ما يزال يحلم بالعودة لدواليب السلطة وربما نصح بتفادي الخروج الإعلامي. فطلب من الجريدة عدم نشر تصريحاته ووعد بأن يكتب أول مقال له على أعمدة «ليكونوميست»، وهو ما فعله بالفعل في شهر يونيو 2001 حينما نشر مقالا للرأي عن مدونة الانتخابات ودعا فيه إلى تغيير نظام الاقتراع. وقد وقع مقاله بـ «البروفيسور إدريس البصري».

عمر المخفي في السودان وتحديدا في أم درمان.. استراحة شاي على هامش أشغال القمة العربية لعام 2005

عمر المخفي أيام الطفولة